

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: 135 - 138]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

بَيَّنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا قَبْلَهَا مُنَاسَبَةً دَقِيقَةً، وَارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ بِالذَّلَائِلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، أَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هِيَ مِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَذَمَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لِعُدُولِهِمْ عَنْ تَلْقَىٰ هَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ، الَّذِي شَمَلَ خِصَالَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، لَجَهَالَتِهِمْ وَسَفَهِهِمْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130].

إبطال دعوى
اليهود
والنصارى أنهم
على الحق

جَاءَتِ الْآيَاتُ بَعْدَهَا مَعطوفةً عَلَى مَا سَبَقَهَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾؛ لَتَبَيَّنَ كَيْفِيَّةَ إِعْرَاضِهِمْ، وَمِقْدَارَ غُرُورِهِمْ وَتَكْبُرِهِمْ، وَتَحَكَّى شُبْهَةٍ مِنْ شُبْهَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَدَعَاوِهِمُ الْكَاذِبَةِ، وَهِيَ: أَنَّهُمْ حَصَرُوا الْهُدَى فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ⁽¹⁾. كَمَا جَاءَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ لِتَرُدَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ بَعْدَهَا، وَتُبَيِّنَ زَيْفَهَا، وَبُطْلَانَ مَذْهَبِهِمْ، بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَتَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، بِذِكْرِ جَوَابِ الْإِزَامِيِّ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 1/736، وباختصار.

إِنِّينَا، ولَمَّا أَبْطَلَ هَذِهِ الشَّبْهَةَ بِالْجَوَابِ الْجَدَلِيِّ، ذَكَرَ بَعْدَهُ جَوَابًا بُرْهَانِيًّا، وَبَيَّنَّ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى مَعْرِفَةِ نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ هِيَ ظُهُورُ الْمُعْجَزِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَلَمَّا ظَهَرَ الْمُعْجَزُ عَلَى يَدِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَجَبَ الاعْتِرَافُ بِنُبُوَّتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِرِسَالَتِهِ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَتَعْقِيبُهَا عَلَى مَا سَبَقَهَا، وَهُوَ بَعْضُ الْغُرُصِ مِنْ ذِكْرِهَا⁽¹⁾.

وبهذا جاءت هذه الآيات ردًّا على دعاوى اليهود والنصارى الباطلة، وَبَيَّنَّتْ غُرُورَهُمْ، وَكَيْفِيَّةَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ مَنَهِجِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَفِيهَا أَيْضًا: بَيَانُ أَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ هُوَ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ، دِينَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﷺ، سَالِكَةٌ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَسْلُوبُ الْحِجَاجِ الْعَقْلِيِّ.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿هُودًا﴾: الْهُودُ: التَّوْبَةُ، هَادَ يَهُودُ هَوْدًا وَتَهَوَّدَ: تَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ هَائِدٌ، وَقَوْمُ هُوْدٍ: مِثْلُ حَائِكٍ وَحَوْكٍ، وَبَازِلٍ وَبَزَلٍ، وَالْمَتَهَوِّدُ: الْمُتَقَرِّبُ، وَهَادَ: إِذَا رَجَعَ مِنْ خَيْرٍ إِلَى شَرٍّ، أَوْ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ، وَكَلَا الرُّجُوعَيْنِ وَقَعَ فِيهِ الْيَهُودُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ بِدَقَّةٍ إِلَى عِلَّةٍ تَسْمِيَتِهِمْ بِالْيَهُودِ؛ لِأَنَّ رَجُوعَهُمْ كَانَ أَوَّلًا مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ، وَثَانِيًا كَانَ مِنْ خَيْرٍ إِلَى شَرٍّ، بِتَحْرِيفِهِمْ لَشَرِيعَتِهِمْ⁽²⁾.

قال ابن فارس: "فَأَمَّا الْيَهُودُ: فَمِنْ هَادَ يَهُودُ، وَسَمُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ تَابُوا عَنْ عِبَادَةِ الْعِجَلِ"⁽³⁾، أَوْ مِنَ الْهُودِ: هَادُوا يَهُودُونَ هَوْدًا، فَيَكُونُ اسْمُ الْيَهُودِ مُشْتَقًّا مِنْ هَادُوا، أَيْ: تَابُوا، وَيُقَالُ: نَسَبُوا إِلَى يَهُودَا، وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِ يَعْقُوبَ، وَحَوَّلَتِ الدَّالُّ إِلَى الدَّالِّ حِينَ عُرِّبَتْ⁽⁴⁾.

(2) ﴿نَصْرَى﴾: مِنْ: (نَصَرَ)، وَالتَّنَصُّرُ: الدُّخُولُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، وَنَصَرَى وَنَصْرَى وَنَاصِرَةٌ وَنُصُورِيَّةٌ وَنَصْرَانٍ: كُلُّهَا اسْمُ قَرْيَةٍ بِالسَّامِ، يُنْسَبُ إِلَيْهَا النَّصَارَى⁽⁵⁾.

وَالنَّصَارَى: هُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى ﷺ، وَالنَّصَارَى فِي الْأَصْلِ: جَمْعُ نَصْرَانٍ وَنَصْرَانَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكَلَامِ إِلَّا بَيَاءُ النَّسَبِ الْمُشَدَّدَةِ: (نَصْرَانِيٌّ)، وَ(نَصْرَانِيَّةٌ)⁽⁶⁾.

(1) الزَّازَنِيُّ، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 4/70-72.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (هود).

(3) ابن فارس، مَقَائِيسُ اللَّغَةِ: (هود).

(4) الخليل، العين: (هود).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (نَصَرَ)، وَهِيَ حَالِيًا مَدِينَةُ كَبِيرَةٌ فِي فِلَسْطِينَ.

(6) سَبِيحُوه، الْكِتَابُ: 3/255.

(3) ﴿تَهْتَدُوا﴾: مِنْ (هَدَى)، والهُدَى يُطلق على معانٍ منها: نَقِيضُ الضَّلَالَةِ، والْبَيَانُ، وإِخْرَاجُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، والطَّاعَةُ وَالْوَرَعُ، والطَّرِيقُ، وَهَدَاهُ يَهْدِيهِ هِدَايَةً، إِذَا دَلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهَدَاهُ يَهْدِيهِ فِي الدِّينِ هُدًى⁽¹⁾.

وجملة القول فَإِنَّ لفظ الهدى يَقَعُ على الإيمان والشَّرَائِعِ كُلِّهَا، إِذِ الْاهْتِدَاءُ إِنَّمَا يَقَعُ بِهَا كُلِّهَا.

أَمَّا (تَهْتَدُوا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، فَجَاءَ مِنَ الْاهْتِدَاءِ، الَّذِي يَخْتَصُّ بِمَا يَتَحَرَّاهُ الْإِنْسَانُ عَلَى طَرِيقِ الْاِخْتِيَارِ، إِمَّا فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، أَوْ الْآخِرَوِيَّةِ⁽²⁾.

(4) ﴿مِلَّةً﴾: مِنْ: (مَلَّلَ)، وَالْمِلَّةُ: الرَّمَادُ وَالْجَمْرُ، وَالذِّيَّةُ، وَالْمَلَلُ وَالْمَلَالُ: أَنْ تَمَلَّ شَيْئًا، وَتُعْرِضَ عَنْهُ⁽³⁾.

وَمِنَ الْمَجَازِ الْمِلَّةُ: الدِّينُ وَالطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ، وَمِنْهَا: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ خَيْرِ الْمِلَلِ، وَامْتَلَّ فُلَانٌ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ⁽⁴⁾.

وَمَعْنَى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: بَلِ الْهِدَايَةُ أَنْ تَتَّبَعَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ.

(5) ﴿حَنِيفًا﴾: مِنْ (حَنَفَ)، وَالْحَاءُ وَالنُّونُ وَالْفَاءُ أَصْلُ مُسْتَقِيمٌ، وَهُوَ الْمَيْلُ، وَيَدُورُ مَعْنَى الْجَذْرِ اللَّغَوِيِّ حَوْلَ: التَّفَاتِ الشَّيْءِ أَوْ اعْوِجَاجِهِ عَنْ مُعْتَادِ الْحَالِ، يُقَالُ لِلَّذِي يَمَشِي عَلَى ظُهُورِ قَدَمَيْهِ: أَحْنَفُ، وَقَالَ قَوْمٌ -وَأَرَاهُ الْأَصَحُّ- إِنَّ الْحَنْفَ اعْوِجَاجٌ فِي الرَّجُلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَرَجُلٌ أَحْنَفُ، أَيُّ: مَائِلُ الرَّجْلَيْنِ⁽⁵⁾، أَيُّ: إِقْبَالُ الْقَدَمَيْنِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، وَحَنَفَ عَنِ الشَّيْءِ وَتَحَنَّفَ: مَالَ⁽⁶⁾.

وَالْحَنِيفُ: الْمَائِلُ عَنِ الدِّينِ الْبَاطِلِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، أَيُّ: الْمُسْلِمُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هدي).

(2) الكفوي، الكلّيات، ص: 954-953.

(3) الخليل، العين: (ملل)، والأزهري، تهذيب اللغة: (ملل).

(4) الرّمحشرقي، أساس البلاغة: (ملل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حنف)، وجبل، للعجم الاشتقاق المؤصل: (حنف).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (حنف).

يَسْتَقْبِلُ قِبْلَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَأَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، وَهِيَ مِلَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، لَا ضِيقُ فِيهَا، وَلَا حَرْجٌ⁽¹⁾.

(6) ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: مِنْ (شَرَكَ) الشَّيْنُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافٍ انْفِرَادٍ، وَالْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَلَفْظَةُ ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ أَصْلُهَا مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، فَالشَّرَكَةُ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، لَا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُمَا⁽²⁾.

وَالشَّرِيكَ: يُجْمَعُ عَلَى شُرَكَاءَ وَأَشْرَاكٍ، "وَأَشْرَكَ بِاللَّهِ: كَفَرَ، فَهُوَ مُشْرِكٌ وَمُشْرِكِيٌّ، وَالْإِسْمُ: (الشَّرْكُ)"⁽³⁾، جَاءَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: "الشَّرْكُ: أَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي رُبُوبِيَّتِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 100]، وَالْمُشْرِكُونَ: هُمُ الَّذِينَ صَارُوا مُشْرِكِينَ بِطَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ⁽⁴⁾.

وَالَّذِي جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مُفْرَدَاتِ التَّرْكِيبِ، جُلُّهُ بِمَعْنَى اتِّخَاذِ الْكَفَّارِ شَرِيكًا، أَوْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ.

(7) ﴿ءَامَنَّا﴾: مِنْ (أَمَنَ)، وَ"الْهَمْزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ، الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا: سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ: التَّصَدِيقُ"⁽⁵⁾.

وَالْمَعْنَى الْمَحْوَرِيٌّ: وَثَاقَةٌ فِي الْبَاطِنِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ أَمُونٌ: أَمِينَةٌ وَثِيقَةُ الْخَلْقِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْأَمْنُ: ضِدُّ الْخَوْفِ، كَأَنَّ الْأَمِينَ تَمَكَّنَ فِي حِصْنٍ، أَوْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ اِمْتِلَاءً شَدِيدًا بِمَا يُطْمَئِنُّهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَمِنَ بِالشَّيْءِ: صَدَّقَ، قَبِلَ الْكَلَامَ، وَوَثَّقَ بِهِ؛ فَتَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ⁽⁶⁾.

وَالْإِيمَانُ: الثِّقَّةُ، وَإِظْهَارُ الْخُضُوعِ، وَقَبُولُ الشَّرِيعَةِ⁽⁷⁾.

وَالْإِيمَانُ يُرَادُ بِهِ: إِذْعَانُ النَّفْسِ لِلْحَقِّ عَلَى سَبِيلِ التَّصَدِيقِ، وَذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ ثَلَاثَةِ

(1) الخليل، العين: (حنف).

(2) ابنُ فارس، مقاييس اللغة: (شَرَكَ).

(3) الكفوي، الكلبيات، ص: 533.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (شرك)، بتصرف.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَنَ).

(6) جبل، للعجم الاشتقاق للوصل: (أمن).

(7) ابن سيده، للحمك والأحيط الأعظم: (أمن).

أَشْيَاءَ: تَحْقِيقُ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِحَسَبِ ذَلِكَ بِالْجَوَارِحِ، وَيُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْقَوْلِ الصِّدْقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ: إِيْمَانٌ⁽¹⁾.

(8) ﴿أَنْزَلَ﴾: مِنْ (نَزَلَ)، وَالنُّزُولُ: الْحُلُولُ، وَنَزَلَ فَلَانٌ عَنِ الدَّابَّةِ، أَوْ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وَقَدْ نَزَلَهُمْ، وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ، يَنْزِلُ نَزُولًا⁽²⁾.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْغَيْثَ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ وَنَزَلَهُ، وَتَنْزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ، فِيهَا دَلَالَةُ النُّزُولِ مِنْ عُلُوٍّ⁽³⁾.

ومعنى الآية: ما أوحاه الله.

(9) ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾: مِنْ (سَبَطَ)، أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، "السَّبَطُ: نَبَاتٌ كَالثَّيْلِ، يَنْبُتُ فِي الرَّمَالِ، لَهُ طَوْلٌ، الْوَاحِدَةُ: سَبَطَةٌ"⁽⁴⁾، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ تَرَعَاهُ الْإِبِلُ، يُقَالُ: الشَّجَرَةُ لَهَا قِبَائِلُ، وَكَذَلِكَ الْأَسْبَاطُ مِنَ السَّبَطِ، كَأَنَّهُ جَعَلَ إِسْحَاقَ بِمَنْزِلَةِ شَجَرَةٍ، وَجَعَلَ إِسْمَاعِيلَ بِمَنْزِلَةِ شَجَرَةٍ أُخْرَى⁽⁵⁾.

وَرَجُلٌ سَبَطَ الْجِسْمَ وَسَبَطُهُ: طَوِيلُ الْأَلْوَحِ، مُسْتَوِيهَا، بَيْنَ السَّبَاطَةِ، مِثْلُ: فَخِذٍ وَفَخِذٍ، مِنْ قَوْمٍ سِبَاطٍ، إِذَا كَانَ حَسَنَ الْقَدِّ وَالِاسْتِوَاءِ⁽⁶⁾.

وَالْأَسْبَاطُ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ فِي قِبَائِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ، سُمُّوا بِالْأَسْبَاطِ: لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَبَطٌ، وَالسَّبَطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَنْزِلَةِ الْقَبِيلَةِ، وَالسَّبَطُ فِي اللُّغَةِ: الْجَمَاعَةُ يَرْجِعُونَ إِلَى أَبِي وَاحِدٍ⁽⁷⁾.

(10) ﴿النَّبِيُّونَ﴾: مِنْ (نَبَأَ)، وَالنَّبَأُ، لَفْظٌ مَهْمُوزٌ، وَهُوَ الْخَبَرُ، وَإِنْ لَفْظَانِ نَبَأٌ، أَي: خَبَرًا، وَالْفِعْلُ: نَبَأْتَهُ وَأَنْبَأْتَهُ وَاسْتَنْبَأْتَهُ، وَالْجَمِيعُ: الْأَنْبَاءُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُنْبِئُ الْأَنْبَاءَ عَنِ اللَّهِ ﷻ، وَالنَّبِيُّ، يُقَالُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، يَأْخُذُكَ إِلَى حَيْثُ تُرِيدُ⁽⁸⁾.

(1) الراغب، المفردات: (أمن).

(2) الفراهيدي، العين: (نزل)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نزل).

(3) الرمخشري، أساس البلاغة: (نزل).

(4) الخليل، العين: (سبط).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (سبط).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (سبط).

(7) السجستاني، غريب القرآن، ص: 49.

(8) الخليل، العين: (نبا).

وقد صرَّحَ سَيِّبَوَيْهِ بِأَنَّ تَخْفِيفَ النَّبِيِّ وَالْبَرِيَّةِ، تَخْفِيفٌ بَدَلِيٌّ؛ بِدَلَالَةِ ضُرُوبِ تَصْرِيفِهَا (1).
وَالنَّبَأُ: خَبَرٌ ذُو فَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ، يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ، أَوْ غَلْبَةٌ ظَنٌّ، وَلَا يُقَالُ لِلْخَبَرِ فِي الْأَصْلِ
نَبَأً، حَتَّى يَتَضَمَّنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ، وَالنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ ذَوِي الْعُقُولِ مِنْ
عِبَادِهِ، لِإِزَاحَةِ عَلَيْهِمْ، فِي أَمْرِ مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَالنَّبِيُّ لِكَوْنِهِ مُنَبِّئًا بِمَا تَسْكُنُ إِلَيْهِ
الْعُقُولُ الذَّكِيَّةُ (2).

(11) ﴿لَا تُفَرِّقْ﴾: مِنْ (فَرَقَ)، وَالْفَرَقُ: مَوْضِعُ الْمَفْرَقِ مِنَ الرَّأْسِ فِي الشَّعْرِ، وَالْفَرَقُ:
تَفْرِيقٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَرَقًا، حَتَّى يَفْتَرِقَا وَيَتَفَرَّقَا، وَتَفَارَقَ الْقَوْمُ وَافْتَرَقُوا، أَي: فَارَقَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَالْتَفَرَّقَ: أَصْلُهُ لِلتَّكْثِيرِ، وَيُقَالُ ذَلِكَ فِي تَشْتِيتِ الشَّمْلِ وَالْكَلِمَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا
تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

(12) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: جَمْعُ مُسْلِمٍ، مِنْ (سَلِمَ)، "وَالسَّلَامُ وَالسَّلَامَةُ: الْبَرَاءَةُ، وَتَسَلَّمَ مِنْهُ:
تَبَرَّأَ" (3).

وَالْمَعْنَى الْمَحْضُورِيُّ: صِحَّةُ جِزْمِ الشَّيْءِ، وَالتَّأَمُّ ظَاهِرُهُ فِي ذَاتِهِ، أَي: عَدَمُ تَصَدُّعِهِ، أَوْ
تَفَرُّعِ غَيْرِهِ مِنْهُ.

وَالْإِسْلَامُ وَالِاسْتِسْلَامُ: الْإِنْقِيَادُ، وَالْإِسْلَامُ مِنَ الشَّرِيعَةِ: إِظْهَارُ الْخُضُوعِ، وَإِظْهَارُ
الشَّرِيعَةِ، وَالتَّزَامُ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَيُقَالُ: فَلَانٌ مُسْلِمٌ، وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: هُوَ
الْمُسْتَسْلِمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالثَّانِي: هُوَ الْمُخْلِصُ لِلَّهِ الْعِبَادَةَ، وَالْمُسْلِمُ: التَّامُّ الْإِسْلَامَ، مُظْهِرُ
الطَّاعَةِ، مُؤْمِنٌ بِهَا، وَبِهَذَا الْمَعْنَى جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (4).

(13) ﴿تَوَلَّوْا﴾: مِنْ (وَلَّى)، وَ"الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالْيَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، وَالْوَلِيُّ:
الْقُرْبُ، يُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلِيٍّ، أَي: قُرْبٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَي: يُقَارِبُنِي" (5).

(1) ابْنُ سَيِّدِهِ، لِلْخُصَصِ: 5/226.

(2) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتِ: (نَبَأٌ).

(3) ابْنُ سَيِّدِهِ، لِلْحَكَمِ: (سَلِمَ).

(4) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (سَلِمَ).

(5) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (وَلَّى).

والتَّوَلَّى يكون بِمَعْنَى: الاتِّباع، وَيَكُون بِمَعْنَى: الإِعْرَاض.

والمراد من الآية: ﴿تَوَلَّوْا﴾: أَعْرَضُوا.

(14) ﴿شِقَاقٍ﴾: مِنْ (شَقَّ)، وَالشَّيْنُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعٍ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَيُسْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الإِسْتِعَارَةِ، تَقُولُ: شَقَقْتُ الشَّيْءَ، أَشَقُّهُ شَقًّا، إِذَا صَدَعْتَهُ، وَالشَّقُّ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ شَقَقْتُ.

والمعنى المَحْوَرِيُّ: صَدَعَ الشَّيْءَ الشَّدِيدَ صَدْعًا نَافِذًا إِلَى عُمُقِهِ: كَصَدْعِ الْعُودِ وَالْحَائِطِ وَالزُّجَاجَةِ، وَكَمَا يَصْدَعُ النَّبْتُ وَالنَّابُ مَا يُعْطِيهِمَا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: 26]، الْمُرَادُ: أَنَّ الْبَذْرَةَ تَنْبُتُ مِنْهَا خَامَةٌ ضَعِيفَةٌ، لَكِنَّهَا تَخْتَرِقُ الْأَرْضَ الصُّلْبَةَ، وَتَبْرُزُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالشَّقَاقُ: الْخِلَافُ؛ كَأَنَّ كُلًّا يَنْشَقُّ عَنِ الْآخَرِ إِلَى نَاحِيَةٍ أَوْ شِقٍّ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: 13]، وَالصَّيْغَةُ هُنَا لِلْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ مِنْ جَانِبِهِمْ هُمْ، مَعَ مُعَاوَدَةٍ وَتَكَرُّارٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ سِيَاقُهُ مُشَاقَّةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ كُلُّ (شَاقٌّ) وَ (يُشَاقُّ)، وَمَا كَانَ بِصَيْغَةِ الْمَصْدَرِ (شِقَاقٍ)، أَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، فَهُوَ خِلَافٌ وَمُبَايَعَةٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَسَائِرُهُ الرَّاجِعُ أَوِ الصَّحِيحُ أَنَّهُ مُشَاقَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشِقُّ الرَّجُلِ -بِالْكَسْرِ- وَشَقِيقُهُ: أَخُوهُ، كَأَنَّهُمَا شِقَّانِ لَشَيْءٍ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ⁽¹⁾.

وَبِهَذَا الْمَعْنَى جَاءَ لَفْظُ (شِقَاقٍ) فِي الْآيَةِ: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، أَيِ: فِي شِقَاقِ الْحَقِّ، وَهُوَ الْمُنَافَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ، وَكَوْنُكَ فِي شِقٍّ غَيْرِ شِقِّ صَاحِبِكَ⁽²⁾.

(15) ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ﴾: مِنْ (كَفَى)، كَفَى يَكْفِي كِفَايَةً، إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ، وَاسْتَكْفَيْتَهُ أَمْرًا فَكَفَّانِيهِ، وَرَأَيْتَ رَجُلًا كَافِيكَ مِنْ رَجَالٍ، أَيِ: كَفَاكَ بِهِمْ رَجَالًا⁽³⁾.

وَالْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ يَدُورُ حَوْلَ: "مَا فِيهِ سَدُّ الْخَلَّةِ، وَبُلُوغُ الْمَرَادِ فِي الْأَمْرِ"⁽⁴⁾، وَمِنْ هَذَا الْأَصْلِ: "كَفَاكَ الشَّيْءُ يَكْفِيكَ: اسْتَغْنَيْتَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَقَتِعْتَ بِهِ، سَدَّ حَاجَتِكَ بِقَدْرٍ مَا تَحْتَاجُ.

(1) جبل، العجم الاشتقاقى: (شقق).

(2) الراغب، المفردات: (شقق).

(3) الخليل، العين: (كفى).

(4) الراغب، المفردات: (كفى).

ومعنى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ لن يصلوا إليك بشيءٍ تُمليه عداوتهم، بسبب توليهم وشقاقهم، فإن الله يكفيك شرهم، وهذا ضمانٌ منه سبحانه كفايته إياهم، ويتضمن ذلك إظهاره ﷻ على أعدائه⁽¹⁾.

16 ﴿السَّمِيعُ﴾: مَنْ (سَمِعَ)، وَالسَّيْنُ وَالْمِيمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِنْيَاسُ الشَّيْءِ بِالْأُذُنِ، مِنَ النَّاسِ وَكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، وَالسَّمْعُ: مَا وَقَرَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَعُهُ⁽²⁾، وَ"يُقَالُ لِسَمْعِ الْأُذُنِ: الْمِسْمَعُ، وَهُوَ الْخَرْقُ الَّذِي يُسْمَعُ بِهِ، وَقَدْ يُقَالُ: لَجَمِيعِ خُرُوقِ الْإِنْسَانِ، عَيْنِيهِ وَمَنْخَرِيهِ مَسَامِعٌ، لَا يُفْرَدُ وَاحِدُهَا"⁽³⁾.
وكلُّ ما في القرآن من التركيب - عدا ما في هذه الفقرة - هو من سماع الأذن، إلا في وصف المولى ﷺ، فهو علمٌ ما يُقال بكيفية يعلمها ﷻ⁽⁴⁾.

17 ﴿صَبْغَةً﴾: مَنْ (صَبَغَ)، وَالصَّبْغُ وَالصَّبَاغُ: مَا يُصْطَبَغُ بِهِ مِنَ الْإِدَامِ، وَصَبَغَ اللَّقْمَةَ، يَصْبُغُهَا صَبْغًا: دَهَنَهَا وَغَمَسَهَا، وَكُلُّ مَا غُمِسَ، فَقَدْ صَبِغَ، وَالْجَمْعُ صِبَاغٌ، وَيُقَالُ: صَبَغَتِ النَّاقَةُ مَشَافِرَهَا فِي الْمَاءِ، إِذَا غَمَسَتْهَا، وَصَبَغَ يَدَهُ فِي الْمَاءِ⁽⁵⁾.
وَالصَّبْغُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: التَّغْيِيرُ، وَمِنْهُ: صَبَغَ الثَّوبُ، إِذَا غَيَّرَ لَوْنَهُ، وَأُزِيلَ عَنْ حَالِهِ إِلَى حَالٍ سَوَادٍ أَوْ حُمْرَةٍ أَوْ صُفْرَةٍ، وَصَبْغَةُ اللَّهِ: دِينُهُ، وَأَصْلُهُ أَنَّ بَعْضَ النَّصَارَى كَانُوا إِذَا وُلِدَ الْمَوْلُودُ، جَعَلُوهُ فِي مَاءٍ لَهُمْ، كَالْتَّطْهِيرِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾، فَسَمَّتِ النَّصَارَى غَمَسَهُمْ أَوْلَادَهُمْ فِي مَاءٍ فِيهِ صَبْغٌ: صَبْغًا: لَغَمَسِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيهِ⁽⁶⁾.

وجملة القول: الصَّبْغَةُ: إشارةٌ إلى ما أوجده الله تعالى في النَّاسِ، وما جُبلوا عليه من الْعَقْلِ، الْمُتَمَيِّزِ بِهِ عَنِ الْبَهَائِمِ كَالْفِطْرَةِ، إِذْ يُقَالُ لِلصَّبْغَةِ: فِطْرَةُ اللَّهِ⁽⁷⁾.
ومعنى الآية: الزَّمُوا دِينَ اللَّهِ وَفِطْرَتَهُ.

(1) جبل، للعجم الاشتقاقى: (كفى).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سمع).

(4) جبل، للعجم الاشتقاقى: (سمع).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (صبغ).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (صبغ)، والجوهري، الصحاح: (صبغ).

(7) ابن دُرَيْد، جفهر اللغة، والراغب، المفردات: (صبغ).

(18) ﴿عَبِدُونِ﴾: مِنْ (عَبَدَ)، الْعَبْدُ: الْإِنْسَانُ حُرًّا كَانَ أَوْ رَقِيقًا، يُذْهَبُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ

مَرْبُوبٌ لِبَارِيهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالْعَبْدُ: الْمَمْلُوكُ⁽¹⁾.

وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مُذَلَّلٌ، وَطَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، وَالْعَابِدُ: الْمُوَحِّدُ⁽²⁾، وَعَبَدَ اللَّهُ عِبَادَةً: فَهُوَ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ، أَي: جَعَلَ نَفْسَهُ مَمْلُوكًا، وَعَبَدًا لِلَّهِ بِهَذَا التَّائِلَةِ، وَبِعِبَادَةٍ أُخْرَى فَالْعِبَادَةُ: الشَّعَائِرُ، وَالْإِمْتِثَالُ فِي التَّصَرُّفِ، فَهِيَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْمَمْلُوكِيَّةِ لِلَّهِ، بِالْإِذْعَانِ وَالْإِمْتِثَالِ لِكُلِّ مَا أَمَرَ وَنَهَى، فِي أَمْرِ دُنْيَا أَوْ دِينٍ⁽³⁾.

"وَعِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى: الدَّلُّ لَهُ بِالْإِتْقَانِ لِمَا أَمَرَ، وَالْإِنْتِهَاءُ عَمَّا نَهَى، وَحَدَّ بَعْضُهُمُ الْعِبَادَةَ فَقَالَ: هِيَ الْأَفْعَالُ الْوَاقِعَةُ عَلَى نِهَايَةِ مَا يُمَكِّنُ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ، وَالْمُجَاوَزَةِ لِتَذَلُّلِ بَعْضِ الْعِبَادِ لِبَعْضٍ"⁽⁴⁾، وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ مَعْنَى ﴿عَبِدُونِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ وَعَبِدُونَ﴾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

جاءت هذه الآيات الكريمت في الردِّ على اليهود والنصارى، وبطلان مذهبهم، وإثبات أن الإسلام هو دين الله الحق في الأرض. فبدأت بذكر شبهة هذين الفريقين، بنسبة الحق لكل فريق منهما فقط، لا لغيرهما⁽⁵⁾، فكل فريق منهم قال لأهل الإيمان على وجه الانفراد: إِنَّ النِّجَاةَ وَالْهَدَايَةَ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: كُونُوا يَهُودًا تَهْتَدُوا لِلْحَقِّ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: كُونُوا نَصَارَى تَهْتَدُوا لِلْحَقِّ، لِيَأْتِيَ الرَّدُّ عَلَى هَذِهِ الشُّبْهَةِ، مَعَ بَيَانِ كَذِبِهِمْ، وَزَيْفِ ادِّعَائِهِمْ، إِذْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ، بِأَنْ يَجِيبَهُمْ: بِأَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ لَيْسَ

الرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى،
وَبَيَانُ دِينِ اللَّهِ
الْحَقِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(2) الرِّيْدِيُّ، تاج العروس: (عبد).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيِّ لِلْوُضَلِ: (عبد).

(4) ابن الجوزي، نزهة الأعيان التواظر، ص: 431.

(5) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي رُؤُوسِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ: كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، وَهَبُ بْنُ يَهُودَا، وَأَبِي تَابِرٍ ابْنُ أَخْطَبٍ؛ وَفِي نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَاصَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي الدِّينِ، كُلُّ فِرْقَةٍ تَزْعُمُ أَنَّهَا أَحَقُّ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَبِيُّنَا مُوسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكُنَّا بَنُو التَّوْرَةِ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بَعِيسَى وَالْإِنْجِيلُ وَمُحَمَّدٌ وَالْقُرْآنُ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَبِيُّنَا عِيسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكُنَّا بَنُو الْإِنْجِيلِ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنُ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ: كُونُوا عَلَى دِينِنَا، فَلَا دِينَ إِلَّا ذَلِكَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى دِينِهِمْ، يُنْظَرُ: الْوَاحِدِيُّ، أَسْبَابُ النُّزُولِ، ص: 41.

في دياناتهم المَحَرَّفَة، بل إِنَّ الهدايةَ الحَقِيقِيَّةَ تَتَمَثَّلُ في اتِّباعِ دينِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، ﷺ، المائلِ عن الأديانِ الباطلةِ إلى الدِّينِ الحقِّ، دينِ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، الَّذِي هو استقامةٌ على طريقِ التَّوْحِيدِ، وَمَيْلَانٌ عن طريقِ الشُّرْكِ والضَّلَالِ، فإِبْرَاهِيمُ ﷺ، لم يَكُنْ من عِبَادِ الأصنامِ، ولم يَكُنْ يَهُودِيًّا ولا نصرانيًّا⁽¹⁾.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَفْصَلًا، وبِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا - مِنْ قَبْلِ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ -، وَنَصَّ عَلَى أَعْيَانِ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْ لَا يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، بل يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلَّهُمْ⁽²⁾.

وقد روى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾»⁽³⁾.

ثُمَّ تَأْتِي الْآيَاتُ الْأَخِيرَتَانِ لِتُبَيِّنَ السَّبِيلَيْنِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، هِدَايَةً وَضَلَالًا، فَإِنْ آمَنَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، إِيْمَانًا مِثْلَ إِيْمَانِكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ؛ فَقَدْ رَشَدُوا وَاهْتَدَوْا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ الْحَقِّ، وَكَذَّبُوا بِالْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ وَعِدَاءٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَيَكْفِيكَ يَا مُحَمَّدٌ أَمْرَهُمْ، وَيَدْفَعُ أَذَاهُمْ عَنْكَ، وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ تَعَالَى السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُونَ، الْعَالِمُ بِمَا يَفْعَلُونَ، فَاتَّبِعُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي فَطَرَكُمْ عَلَيْهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَالزَّمَوْهُ، فَلَا دِينَ أَحْسَنُ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقُومُوا بِهِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَكُونُوا لَهُ خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ⁽⁴⁾.

❁ الإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

غرض الالتفات:

مِنْ بِلَاغَةِ التَّرَاكِيِبِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَجِيئُهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِلْتِفَاتِ، فَبَدَلَ أَنْ يَخَاطَبَهُمْ

(1) الطَّبْرِيُّ، جامع البيان: 105-101/1.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 448/1.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، الحديث رقم (4485): 20/6.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 115-113/3، والسَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 45-44.

إهمال أهل
الكتاب
بالإعراض عن
خطابهم

ملة الكفر واحدة
في مواجهة
الإسلام

الاحتباك يحث
المُتلقي على
البحث عن
المحذوف

مخاطبة مباشرة أعرض عن ذلك وأخبر عنهم، وفائدة هذا الالتفات الإعلام باستيجاب حالهم إبعادهم من مقام المخاطبة إعراضاً عنهم، وتعدد جنائياتهم عند غيرهم⁽¹⁾.

بلغة الاحتباك:

جاء قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، على طريقة الحذف التقابلي؛ فقد حذف من الأول مع اليهود الفعل: ﴿تَهْتَدُوا﴾؛ لدلالة الفعل ﴿تَهْتَدُوا﴾ المُقْتَرِنِ مع النَّصَارَى عليه ثانياً، وحذف من الثاني الفعل: ﴿كُونُوا﴾؛ لدلالة الفعل ﴿كُونُوا﴾، المُقْتَرِنِ مع اليهود عليه أولاً، وبهذا انطوت الآية على الاحتباك، بحذف في كل منهما، ما دلَّ عليه المذكور في الآخر.

وهذا الحذف من الإيجاز، وتقدير الآية الكريمة: قالت اليهود: كونوا هوداً ﴿تَهْتَدُوا﴾، وقالت النَّصَارَى: ﴿كُونُوا﴾ نصارى تهتدوا⁽²⁾. وفائدة الاحتباك⁽³⁾ بيان أن الكفر كله ملة واحدة؛ فقد اجتمعت كلمة اليهود والنصارى على كلمة واحدة.

ومما يعضد هذا التقدير: أن (الواو) في: ﴿وَقَالُوا﴾ عائدة على اليهود أولاً، وعلى النَّصَارَى ثانياً، وتوزع القول عليهما، قال أبو السُّعُود: "ليس هذا القول مقولاً لكلهم، أو لأي طائفة كانت من الطائفتين، بل هو موزع عليهما، على وجه خاص يقتضيه حالهما، اقتضاءً مغنياً عن التصريح به، أي: قالت اليهود كونوا هوداً، والنصارى كونوا نصارى"⁽⁴⁾.

وفي هذا الاحتباك أيضاً: تنبيه المُتَلَقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه،

(1) أبو السُّعُود، إرشاد العقل السليم: 1/165.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/101.

(3) الاحتباك: "أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول"، الشُّبُوطِي، الإتيان: 3/204.

(4) أبو السُّعُود، إرشاد العقل السليم: 1/165.

وَيَقِلُّ نِسْيَانُهُ، وهذا مَطْلَبٌ من مطالب الحَذَفِ في القرآن الكريم، وهي غايةُ البلاغةِ، المُتمثِّلةُ في استثمارِ أَقْلٍ ما يُمْكِنُ من الألفاظ، في أكثرِ ما يُمْكِنُ من المعاني.

دلالة استعمال حرف العطف (أو):

استعمل حرفُ العطف «أَوْ» دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ لما يحمله من معانٍ ودلالاتٍ، لا يؤدِّيها غيره من حروفِ العطف؛ فجاء حرفُ «أَوْ» للإيضاح وتفصيل الإجمال في الفعل: ﴿وَقَالُوا﴾⁽¹⁾، ويُطْلَقُ عليه أيضًا: اللَّفُّ والنَّشْرُ المُجْمَلُ، فضميرُ الجماعةِ الفاعلِ (الواو) في: ﴿وَقَالُوا﴾، يَشْمَلُ فريقينِ مِنْ أَهْلِ الكتابِ، فهو عائدٌ على اليهودِ أولاً، وعلى النَّصارى ثانيًا، ويُوَزَّعُ القولُ عليهم؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ، يُعَدُّ دينَ الآخرِ باطلاً، ذلك أنَّ اليهودَ قالت على وجهِ الإفرادِ، والنَّصارى قالت على وجهِ الإفرادِ أيضًا، ولم يَقُلْ كلُّ فريقٍ منهم: كونوا هُودًا أو نصارى تهتدوا، فلمَّا أَجْمَلَ في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾؛ جَاءَ بِـ«أَوْ» لِلتَّفْصِيلِ؛ إذ كانت مَوْضُوعَةً لأحدِ الشَّيْئَيْنِ⁽²⁾.

استقْدالُ كلِّ
من اليهودِ
والنَّصارى في
الدَّعوةِ إلى دينه

أثر حرف الإضراب في تقرير المعاني:

لَمَّا جَاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، في بيانِ دَعْوَةِ اليهودِ والنَّصارى المؤمنين لِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ، وبيانِ عقيدةِ الفريقينِ في تَفَرُّقِهِمَا وضلالِهِمَا، ناسبَ المقامَ التَّعبيرُ بحرفِ الإضرابِ «بَلْ»، في الآيةِ الكريمة: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لِإِبْطَالِ عقيدَتِهِمْ ومزاعمِهِمْ، وَلَفَتْ نظرَ النَّبِيِّ ﷺ، إلى البرهانِ الأقوى في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، بِمِلَّةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

إبطالُ عقائدِ
أهلِ الكتابِ بما
ينتسبون إليه

(1) المرتضى، أمالي المرتضى: 2/55، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/120، والرادّي، الجنى الداني، ص: 229، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/210.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/105.

فحرفُ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾، ردَّ عليهم بإثبات أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ ﷺ ليس يهودياً ولا نصرانياً⁽¹⁾، وهو دليلٌ على أنَّ ملَّةَ ﷺ، مُخالفةٌ لليهودية والنَّصرانية⁽²⁾، وأنَّ اليهود والنَّصارى لا يكونون متَّبعينَ ملَّةِ إبراهيم إلا أن يكونوا على دينِ محمدٍ ﷺ.

فيكون المعنى: "بَلْ نَتَّبِعْ، أَوْ اتَّبِعُوا ملَّةَ إبراهيم، الَّذي لا نزاعَ في هُداة ولا في هُدْيِه، فهي المِلَّةُ الحَنِيفِيَّةُ القائمةُ على الجادَّة، بلا انحرافٍ ولا زَبِغٍ، العريقةُ في التَّوْحِيدِ والإِخْلَاصِ، بلا وثنيَّة ولا شِرْكٍ"⁽³⁾.

بلاغة الفاصلة القرآنية في تقرير المعاني السَّاقِية:

جاءت الفاصلةُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على غايةِ البلاغةِ، ومنتهى البراعةِ، فقد حقَّقت مجموعةً من المعاني البيانية:

إبطالُ عقيدةِ
المُشْرِكِينَ، إثر
إبطالِ عقائدِ
أهل الكتابِ

أفادت الفاصلةُ احتراساً من توهُمٍ قد يقعُ في ذهنِ المُشْرِكِينَ، فلمَّا قال تعالى قبلها: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فأبطلَ عقيدةَ اليهود والنَّصارى، وأثبتَ عقيدةَ إبراهيمَ ﷺ، جاء هذا الاحتراسُ، ليدفعَ توهُمَ أنَّ تكونَ الحنيفيَّةُ قائمةً على الشِّرْكِ، قال ابنُ عاشور: "وهو احتراسٌ، لِئَلَّا يَغْتَرَّ الْمُشْرِكُونَ بقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، أي: لا نكونُ هُودًا ولا نصارى، فَيَتَوَهَّمُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ لم يَبْقَ من الأديانِ إِلَّا ما هُم عليه، لَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ على مِلَّةِ إبراهيمَ، وإلَّا فليس ذلك من المَدْحِ له، بعد ما تقدَّم مِن فضائلِهِ"⁽⁴⁾.

التَّعْرِضُ
باليهود
والنَّصارى
وإبطالِ
عقيدتهم

وأفادت تعريضاً باليهود والنَّصارى، وبطلانَ دَعواهم، في اتِّباعِ إبراهيمَ ﷺ، لِشِرْكِهِم بالله تعالى، وكفَرِهِم به؛ وذلك بقولهم: عزيزُ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله⁽⁵⁾، فضلاً عمَّا فيه من

(1) السيوطي، قطف الأزهار: 1/330.

(2) أبو حنَّان، البحر المحيط: 1/647.

(3) محمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/395.

(4) ابن عاشور، التَّحْريْر والتَّنْوير: 1/736.

(5) الرَّمْخُسَرِيُّ، الكُشَاف: 1/194.

تكذيبهم، وردّ مزاعمهم بأنهم على الحق، فالفاصلة عرّضت بأن اليهودية والنصرانية المحرّفتين نوع من الشرك؛ لأن مجيء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في مُقَابِلِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ⁽¹⁾.

ومن بلاغة الفاصلة: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جاء تأكيداً لقوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأن (الحنيف) المائل عمّا سوى التوحيد، فسيّدنا إبراهيم عليه السلام، ما كان أبداً من المُشركين؛ لأن (كان): تدلُّ على اتّصاف اسمها بخبرها، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، يعني أنّ هذا الوصف مُنتَفٍ عنه؛ وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعمُّ انتقاء الشرك الأصغر والأكبر عنه، فهذه هي المِلَّة التي يتبّعها النبي محمد ﷺ، ويتبّعها المسلمون، وهي المِلَّة الحنيفية الحقيقية التي توصل العبد إلى ربه⁽²⁾.

بلاغة الطّباق الخفي:

من بديع نسيج الآية الكريمة: الطّباق الخفي⁽³⁾ بين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾، فلما ثَبَتَ بالإضراب ب (بل)، ومفهوم المخالفة وغيرها من الأدلة العقلية والنقلية، أنّ اليهودية والنصرانية شرك، كان في مجيء الفاصلة القرآنية ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ طباق خفي؛ لأنه جَمَعَ بين الشّيء وما يتعلّق بضده، فقد جمع بين التوحيد المُتمثل بالحنيفية وعدم الشرك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وما يتعلّق بضده، وهم اليهود والنصارى، وما هم عليه قبلها في قوله: ﴿كُونُوا هُودًا

التأكيد المعنوي
لمعنى الحنيفية

الجمع بين
المتضادات يبرز
الحق ويوضحه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/71.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم- سورة البقرة: 2/84.

(3) هو ما تكون فيه المطابقة خفية، لتعلّق أحد الرّكنين، بما يقابل الآخر لتعلّق السببية، نحو قوله تعالى: ﴿يُحَدِّثُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أُيُودُهُ عَلَى الْكُفَّارِ زُجْمًا يُنَبِّئُهُمْ﴾ [الفتح: 29]؛ فالزّحمة ليست مُقابلة للشدّة؛ لكنها مُسبّبة عن اللّين، الذي هو ضدّ الشدّة، ينظر: محمّد قاسم، ومحبي الذين ديب، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، ص: 68.

أَوْ نَصْرِيَّ، فهم أهل الشُّرك والضَّلال، وبهذا قابلت الآية بين أهل الشُّرك وأهل التَّوحيد، وبين الباطل والحق.

دلالة إفراد فعل القول وجمعه:

بناءً إيمان الأمة
على إيمان
نبيها؛ لترفع
قواعد المتابعة
على بصيرة

لسائل أن يسأل عن سرِّ إفراد فعل القول في خطاب النبي ﷺ في الآية السابقة في قوله: **﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾**، في حين جاء به بصيغة الجمع في قوله: **﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾**؟

والجواب: أن إفراد الضمير في الكلام الموجه إلى النبي ﷺ؛ مزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى؛ لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم، وجمع الضمير في الكلام الذي للأمة؛ لمزيد الاختصاص بمضمون المأمور به، في سياق التعليم في قوله: **﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾**، فضلاً عن أن صيغة الجمع في الفعل **﴿قُولُوا﴾** تشمل النبي ﷺ والمسلمين؛ لأنه ﷺ قد علم ذلك من قبل، فيما تضمنته علوم الرسالة، ولذلك لم يخل واحد من هاتيه الكلمات، عن الإيدان بشمول الأمة مع النبي (1).

ولبناء الخطاب الثاني (الجمع) على الأول (الإفراد)، فإن الإيمان بملة إبراهيم عليه السلام وتباعها، هو أصل الإيمان بما أنزل من عند الله جميعه.

دلالة فعل الأمر **﴿قُولُوا﴾** خطاباً للمؤمنين:

تتميم البيان في
أمر الإيمان بملة
إبراهيم عليه السلام

من بلاغة الآية الكريمة: الإنشاء الطلبي بفعل الأمر **﴿قُولُوا﴾** في قوله تعالى: **﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾**، والأمر بالقول أمرٌ بما يتضمَّنه، إذ لا اعتداد بالقول إلا لأنه يطابق الاعتقاد، والمقصود من فعل الأمر **﴿قُولُوا﴾** الإعلان به، والدعوة إليه، لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة، بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل الإسلام،

(1) الرَّاظِي، مفاتيح الغيب: 4/72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/738.

ولما فيه من الإنصافِ وسلامةِ الطَّويَّةِ: لِيَرَّغَبَ فِي ذَلِكَ الرَّاغِبُونَ، وَيَكْمَدَ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْمُعَانِدُونَ، وَلِيَكُونَ فِعْلُ الْقَوْلِ هَذَا احْتِرَاسًا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَي: نَحْنُ لَا نَطْعُنُ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى وَشَرِيعَةِ عِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ، وَلَا نَكْذِبُهُمْ، وَلَكِنَّا مُسْلِمُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، بِدِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَقِيَ عَلَى أَسَاسِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَكَانَ تَفْصِيلًا لَهَا، وَكَمَالًا لِإِرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا، حِينَ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِكْمَالَهَا، فَكَانَتِ الشَّرَائِعُ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ كَمُنْعِرَاتِ الطَّرِيقِ، سُلْكَ بِالْأُمَمِ فِيهَا، لِمَصَالِحَ نَاسَبَتْ أَحْوَالَهُمْ وَعُصُورَهُمْ، بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ (1).

ترتيب الأنبياء زمنيًا ودلاليًا على طريقة التدلي:

مِنْ بِلَاغَةِ التَّرْتِيبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾: تَقْدِيمُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ عَلَى طَرِيقَةِ التَّدْلِيِّ (2)؛ بِذِكْرِ الْأَقْدَمِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ زَمَنِيًّا، فَقَدْ ذَكَرَ أَوَّلًا: مَا أُنْزِلَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، لِفَضْلِهِ وَأَبْوَّتِهِ؛ لِلْإِهْتِمَامِ وَبَيَانِ شِدَّةِ الْعِنَايَةِ بِهِ، عَلَى سَنَنِ الْعَرَبِ، فِي تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ حَسَبَ الْمَوْقِفِ؛ فَهُوَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَهُوَ أَصْلُهُمْ وَرُكْنُهُمْ، فَضْلًا عَنْ دُخُولِ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ تَحْتَ شَرِيعَتِهِ (3).

ترتيب الأنبياء
في الذكر
مقصود لذاته
غير متوقف على
التاريخ

ثُمَّ تَقْدِيمُ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، الْابْنَ الْبِكْرِ الْأَكْبَرِ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ ذَكَرَ إِسْحَاقَ عَلَى ابْنِهِ يَعْقُوبَ، وَقَدْ ذَكَرَ يَعْقُوبَ عَلَى الْأَسْبَاطِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ: مُوسَى ثُمَّ عِيسَى ﷺ جَمِيعًا، وَهَذَا التَّرْتِيبُ مَقْصُودٌ فِي هَذَا السِّيَاقِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى لِحَازِلِ الزَّمَنِ، إِذْ جَاءَ بِتَرْتِيبِ الْأَنْبِيَاءِ حَسَبَ التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ، فَضْلًا أَنْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى دُخُولِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، إِذْ هُمْ دَاخِلُونَ فِي شَرِيعَتِهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/738.

(2) التَّدْلِي: هُوَ أَنْ يُذَكَّرَ الْأَعْلَى، ثُمَّ الْأَدْنَى لِنُكْتَةِ، يُنْظَرُ: السِّيَوطِي، الْإِتْقَانُ: 3/46.

(3) أَبُو حَيَّان، الْبَحْرُ لِلْحَيْط: 1/650، وَابْتِخَارُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿أُنْزِلَ﴾ و﴿أُوتِيَ﴾:

الإشارة إلى
مزيد عناية بهذه
الكتب، للحد من
عند الحديث
عنها

مِنْ دَقَائِقِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ: ﴿أُنْزِلَ﴾، وبالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾، فقد اسْتَعْمَلَ: ﴿أُنْزِلَ﴾ مع الأنبياء أَوَّلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ: ﴿أُوتِيَ﴾ مع موسى وعيسى ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾⁽¹⁾.

وَمِنْ عِلَلِ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِيتَاءِ مَعَ مُوسَى وَعِيسَى، دُونَ فِعْلِ الْإِنْزَالِ، الْاهْتِمَامُ بِهِمَا، فَالْفِعْلُ: ﴿أُوتِيَ﴾ أَبْلَغُ وَأَدْلُّ؛ لَكُونَهُ الْمَقْصُودَ مِنْهُ، وَلِأَنَّهُ أَعْمُ وَأَوْسَعُ، فَهُوَ يُسْتَعْمَلُ لِلْكَتَبِ وَغَيْرِهَا، مِثْلَ الْمَعْجَزَاتِ، وَفِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْإِعْطَاءِ الْحِسِّيِّ الَّذِي فِيهِ شَبَهُ التَّمْلِيكِ وَالتَّفْوِضِ⁽²⁾، وَلِهَذَا الْمَعْنَى الْحِسِّيَّ عَبَّرَ بِالْإِيتَاءِ؛ لِأَنَّ ظُهُورَ الْمَعْجَزَاتِ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى يَدِ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ أَكْثَرُ وَأَشْهُرُ مِنْ ظُهُورِهَا عَلَى يَدِ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ وَإِسْحَاقَ، فَمُوسَى ضَرَبَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ، وَأَلْقَى الْعَصَا، فَانْقَلَبَتْ ثُعْبَانًا، وَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَصَارَتْ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ، وَعِيسَى كَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، فَنَاسَبَ لَفْظُ الْإِنْزَالِ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَأَوْلَادَهُ؛ فَإِنَّ اشتهارَهُمْ بِإِنْزَالِ الْوَحْيِ أَكْثَرُ مِنْ اشتهارِهِمْ بِالْمَعْجَزَاتِ، فَغَيَّرَ الْأَسْلُوبَ؛ تَفْضِيلًا لِمَا لَهُمَا مِنَ الْكِتَابَيْنِ وَالْمَعْجَزَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ⁽³⁾.

وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ أَكْثَرَ الْأَتْبَاعِ هُمْ مِنْ أَتْبَاعِ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ، فَهِيَ مِنْ بَابِ تَنْبِيهِ الْأَتْبَاعِ عَلَى كِتَابِ الْمَتَّبِعِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَزِيدَ مَسْئُولِيَّةٍ فِي الْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ إِشَارَةٌ كَذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِمَا عَلَى وَجْهِ أَخْصَ؛ لِمَا قَدْ يَصْدُرُ عَنْ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَشَاحِنَةٍ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ تَمْتَدُّ إِلَى كِتَابِ الْقَوْمِ فَيَقْعُ الْمَحْذُورُ، وَأُجْرِي مَا بَعْدَهُ بِذِكْرِ الْإِيتَاءِ لَا الْإِنْزَالِ عَلَى عَمُومِ النَّبِيِّينَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَعْظَمَهُمْ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/362.

(2) الألوسي، روح المعاني: 1/392.

(3) ابن عرفة، تفسير الإمام ابن عرفة: 1/175.

دلالة تقديم القرآن على سائر الكتب السماوية:

تَقْدِيمُ الْأَضَلِّ
الْمُهْمِمِ الَّذِي
لَا يَقْبَلُ الْإِيمَانَ
بِسِوَاهُ مَا لَمْ
يُؤْمَنْ بِهِ

الإجمالُ بعد التّفصيل:

بيانٌ وسطية
هذه الأمة
وتطرفِ غيرها

وفيه فوائدٌ عِدَّةٌ، منها: العناية بذكر أسماءِ الأنبياء وتعيينهم ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾، إظهارَ المَكَانَتِمْ الرَّفِيعَةِ ﷺ، واهتماماً بهم، فقد ذُكروا مرَّتين، مرَّةً على وجه الخصوص، ومرَّةً ثانيةً على وجه العموم في دخولهم تحت اللَّفْظِ العامِّ: ﴿التَّيُّونَ﴾.

(1) الألوسي، روح المعاني: 1/392.

(2) أبو حَيَّان، البحر المحیط: 1/649، والبقاعی، نظم الدرر: 1/166.

وفيه بيان فضيلة هذه الأمة بين الأمم في موقفها من جميع الأنبياء؛ فاليهود آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمدٍ وعيسى عليهما السلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمد عليه السلام (1)، وهذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء ولم تكفر بأحدٍ، وهذا هو معنى وسطيتها وتطرف غيرها.

بلاغة جملة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾:

التَّعْرِضُ بَمَنْ
يُفَرِّقُ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ تَعَالَى

في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، إيماءٌ وإشعارٌ بذمٍّ من يفرق بين أنبياء الله، وأنه واقعٌ في الإثم العريض، بخلاف هذه الأمة، ومجيء لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ أفاد التَّنْكِيرَ العمومَ والشمولَ، وقد نُزِّلَ المفردُ منزلةَ الجمعِ، في تناوله الأحادَ مطابقةً؛ لأنَّ لفظ: ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة؛ ولذلك صحَّ دخول: ﴿بَيْنَ﴾ عليه (2).

ولأنَّ التَّنْكِيرَ الواقعةَ في سياق النَّفْيِ تُفِيدُ العمومَ لفظاً، ولأنَّ: ﴿أَحَدٍ﴾ اسمٌ موضوعٌ لِمَنْ يَصْلُحُ أَنْ يُخَاطَبَ، ويستوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنثُ، إذا كانت همزته أصليَّةً، وعلى أنَّها مُبدَلةٌ من الواو، فهو بمعنى (واحد)، وعمومه؛ لوقوعه في حيزِ النَّفْيِ (3).

تشابه الأطراف في الفاصلة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾:

التَّأْكِيدُ عَلَى
مَعْنَى الْإِيمَانِ
وَالِاسْتِسْلَامِ
الْمُطْلَقِ لِلَّهِ

جاءت الفاصلة: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، لِتُؤَكِّدَ معنى الآية، الذي تضمَّنَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، والتَّسْلِيمِ بِكُلِّ كِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، فقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، مندرجٌ تحت قوله تعالى أَوَّلَ الآية: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، على طريقة تشابه الأطراف، فلمَّا ذَكَرَ ما يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ أَوَّلًا، وهو الْإِيمَانُ، أي: التَّصَدِيقُ، نَاسَبَ أَنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/110.

(2) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكَشَّاف: 1/195، والأَلَوْسِيُّ، روح المعاني: 1/393.

(3) ابن اللَّيْثِ، الانتصاف: 1/195.

يَخْتِمُ الْآيَةَ بِذِكْرِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ النَّاشِئُ عَنِ الْإِيمَانِ الظَّاهِرِ عَلَى الْجَوَارِحِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، لِيَجْتَمَعَ الْأَصْلُ، وَالنَّاشِئُ عَنِ الْأَصْلِ⁽¹⁾.

فَالْفَاصِلَةُ بَيَّنَّتْ: أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَسْلِمًا لِلَّهِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، فَيَسْتَسْلِمُ قَلْبُ الْمَرْءِ لِلَّهِ تَعَالَى مُحِبَّةً وَتَعْظِيمًا وَاجْتِلَالًا، وَيَسْتَسْلِمُ لِسَانُهُ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ، وَتَسْتَسْلِمُ جَوَارِحُهُ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ⁽²⁾.

وَجَاءَتِ الْفَاصِلَةُ أَسْلُوبًا خَبَرِيًّا مُؤَكَّدًا بِاسْمِيَّةِ الْجُمْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَبَاتِ الْوَصْفِ لَهُمْ وَدَوَامِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وَتَقْدِيمُ مَا حُقِّقَهُ التَّأَخِيرُ، فَقَدْ قَدَّمَ شِبْهَ الْجُمْلَةِ ﴿لَهُ﴾ عَلَى عَامِلِهِ ﴿مُسْلِمُونَ﴾، وَالْأَصْلُ: وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ لَهُ، وَهَذَا التَّقْدِيمُ أَفَادَ: الْقَصَرَ بِتَخْصِيصِ الْاسْتِسْلَامِ الْمُطْلَقِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، فَضْلًا عَلَى أَنْ فِيهِ تَحْسِينًا لَفْظِيًّا لِلْفَاصِلَةِ وَالْاهْتِمَامَ بِالْمُقَدَّمِ⁽³⁾.

توجيه المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

تَشَابَهَتْ بِدَايَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١٣٦) مَعَ آيَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

الخطاب في
الموضعين
بين العموم
والخصوص

فَبَيْنَ الْآيَتَيْنِ تَشَابَهٌ لَفْظِيٌّ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ⁽⁴⁾:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ جَاءَ بِفِعْلِ الْقَوْلِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، فِي حِينَ جَاءَ مُفْرَدًا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، وَسِرُّ ذَلِكَ: أَنَّ آيَةَ الْبَقَرَةِ جَاءَتْ عَامَّةً، وَالْفِعْلُ ﴿قُولُوا﴾ أَمْرٌ لْجَمِيعِ الْمُخَاطَبِينَ الْمَقْصُودِينَ بِهَذَا الْخُطَابِ، أَمَّا آيَةُ آلِ

(1) أَبُو حَيَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 651-652/1.

(2) ابْنُ عَثِيمِينَ، تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: 2/91.

(3) الْهَرَبِيُّ، حُدَاثُ الرُّوحِ وَالزَّيْحَانِ: 2/322.

(4) الْإِسْكَافِيُّ، دَرَّةُ التَّنْزِيلِ، ص: 298، وَالْكَرْمَاتِيُّ، أَسْرَارُ التَّكْرَارِ، ص: 71، وَالْغُرْنَاطِيُّ، مَلَكَ التَّأْوِيلِ: 53-52/1، وَالْبَقَاعِيُّ، نَظْمُ

الدَّرْنِ: 2/188، وَتَبَصَّرُفْ.

عمران، فأفرد الفعل ﴿قُل﴾؛ لأنه أمر للنبي ﷺ، فَلَحِقَ ضمير الجمعِ أولاً لخطابهم، ولم يَلْحَقْ في الثاني؛ لإفراد الخطاب، وضمير الواحد لا يبرزُ.

الثاني: أنه عُدِّي الفعل أنزل بـ (إلى) في البقرة ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾، في حين عُدِّي الفعل بـ (على) في آل عمران ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وبيانه: أن آية البقرة عُدِّي الفعل ﴿أُنْزِلَ﴾ بـ (إلى)، لما قيل قبله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وهو أمر للنبي ﷺ وَمَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى التَّشْرِيكِ، وإذا كان الأمر للجميع، وجرى على حقيقته، فإنما أُنْزِلَ إليهم، لأنَّ المُنْزَلَ عليه حقيقة هو الرسول، لا المؤمنون، ولما قال في آل عمران: ﴿قُل﴾، وكان الخطاب للنبي، ناسبه تَعْدِيَةُ الفعل بـ (عَلَيْنَا)؛ لأنه أُنْزِلَ عليه، فجاء كلٌّ على ما يَجِبُ.

الثالث: أنه كَرَّرَ الفعل: ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، في حين لم يذكُرْه واكتفى بالعطف في آل عمران ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 84]، وعلة ذلك: أنه كَرَّرَ الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة؛ لأنَّ الأمر في البقرة، لما كان للرسل وللمؤمنين، ناسبه تأكيدُ ذِكْرِ الإنزالِ على النبيين؛ لأنَّ المؤمنين لا يُفَرِّقُونَ بين أحدٍ منهم، وقد فَرَّقَ غيرُهم، فناسبَ حالهم، وسَجَّلَ إيمانهم بالجميع، تأكيدُ مقالهم وتثبيتُ اعتقادهم، فقالوا: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أمَّا في آل عمران: فلما توجَّه الأمرُ ببادئ الخطابِ من قوله: ﴿قُل﴾ خاصًّا به، وبعد ذلك وقع التعميمُ، ناسبه عدمُ التأكيد؛ لتَنَزُّهُ النبي ﷺ حالاً ومقاماً، عن التفريق بين أحدٍ من الرسل.

دلالة اقتران الشرط بالفاء، في قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾:

في التعبير بأسلوب الشرط المُقْتَرِنِ بالفاء ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾: تَبَكَّيْتُ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بإلجائهم إلى الاعترافِ بالحقِّ، بإرخاءِ العنانِ وسدِّ طُرُقِ المِجَادِلَةِ عليهم؛ لأنَّ دينَ الحقِّ واحدٌ، لا مِثْلَ لَهُ، وهو دينُ الإسلامِ، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85] (1).

إقامة الحجَّة
على أهل
الكتاب، بإبطال
مذهبهم

وفيه: تفرُّعٌ لهم بإبطالِ دينهم، القائمِ على الشُّركِ والضلالِ،

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكُشَّاف: 1/195.

وإثبات أن الدين الحق واحد، وهو الإسلام، وما سواه باطل وضلال؛ لأن الفاء في أول الآية هي لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وبوجودها في أول الآية، أقيمت الحجة عليهم، لإعراضهم عن الإسلام، وقد دل مفهوم الشرط المقترن بها، على أنهم غير مؤمنين، ولا على الهدى المستقيم، ما داموا على غير ملة الإسلام⁽¹⁾.

سر التعبير بأداة (إن) دون (إذا):

استعمل النظم القرآني (فإن) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الدالة على الشك في تحقق الوقوع، وفائدة ذلك بيان أن إيمانهم غير مرجو، ومشكوك في حصوله ووقوعه منهم⁽²⁾، ففيه إشعار بموقفهم المستقبلي، وأنهم ما بين مؤمن ومتولٍ.

الإشارة إلى غيب المستقبل

سر تقديم شرط الإيمان على شرط التولي:

قدم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ شرط الإيمان ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾ على شرط التولي ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ لنكتة بيانية قائمة على قيمة هدائية، وهي أنه وإن كان أولئك لا يتوقع منهم الإيمان إلا القليل، فإن من شأن هذا القليل أن يحرص عليه؛ فالآية تعلم المؤمنين الاستبشار بإيمان الآخرين، مهما عاذا ومهما عاندوا، فإن الإيمان متوقع وإن كان المقابل معاندا؛ فالآية تحث المؤمنين على الحرص على هداية الآخرين والاجتهاد في ذلك، ورجاء الخير لهم.

القيمة الهدائية
نبراس النظم
وأصل الكلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/740.
(2) الرّمخشري، الكشاف: 1/195، وبتصرف.

سِرُّ الْقَصْرِ بَيْنَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾:

الإشارة إلى
الشقاق الواقع،
والإخبار عن
شقاقٍ أشدَّ

جاء أسلوبُ الْقَصْرِ الإضافيُّ بـ (إِنَّمَا)، الواقع في جوابِ الشَّرْطِ الْمُقْتَرَنِ بالفاء، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، إذ قَصَرَتْ هذه الجملةُ أهلَ الكتابِ على الشَّقَاقِ والخِلَافِ والْعَدَاوَةِ في غيرِ الحقِّ - إِنَّ هُمْ تَوَلَّوْا -، مُبَالِغَةً في وصفهم بالشَّقَاقِ، وبيانِ شِدَّةِ مخالفتهم وعداوتهم للمسلمين، فالقصرُ بَيْنَمَا يُوْتَى به عند معرفةِ المخاطَبِ بمضمونِ الخطاب، وهذا يزيد من معنى التأكيد فيها، ففيه بيانٌ أَنَّهُمْ فِي شِقَاقٍ قَبْلَ التَّوْلِيَةِ، وَأَنَّهُمْ بَعْدَ التَّوْلِيَةِ فِي شِقَاقٍ أَشَدَّ.

وأكَّدَ الجملةَ الواقعةَ شَرْطًا بِإِنَّ، وتأكَّدَ معنى الخبرِ ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ الذي أفادَ قُوَّةَ التَّمَكُّنِ والإِحاطَةِ؛ إذ جَعَلَهُ مُسْتَوِلِيًّا عَلَيْهِمْ، استيلاءَ الظَّرْفِ على ما يُوضَعُ فيه، بحيث صارَ ظَرْفًا لَهُمْ وَهُمْ مَظْرُوفُونَ لَهُ؛ كَأَنَّ الشَّقَاقَ مُسْتَوِلٍ عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، ومحيطٌ بِهِمْ، إِحاطَةَ الْبَيْتِ بِمَنْ فِيهِ، بِأَسْلُوبٍ بليغٍ⁽¹⁾.

بِلاغةِ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ ودلالاتها البيانية:

حاجةُ الْمُؤْمِنِ
لِلْإِعَانَةِ الإِلَهِيَّةِ
مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ

من بديعِ نسيجِ الآيَةِ الكريمة: التَّفْرِيعُ بقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾؛ إذ فَرَعَ هذه الجملةَ على ما سَبَقَهَا وهي: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، لتسليَةِ النَّبِيِّ ﷺ وتَثْبِيتهِ، وتَفْرِيحِ الْمُؤْمِنِينَ بوعْدِ النُّصْرَةِ والغَلْبَةِ، وضمانِ التَّأْيِيدِ لَهُمْ⁽²⁾؛ لِأَنَّ إِعْلَامَهُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ فِي شِقَاقٍ، مع ما هو معروفٌ مِنْ كَثَرَتِهِمْ، وَقُوَّةِ أَنْصَارِهِمْ، مِمَّا قد يَخْرُجُ لَهُ السَّمَاعُ، فوعَدَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ يَكْفِيهِ شَرَّهُمْ الحَاصِلَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ⁽³⁾، فأفادتِ الْفَاءُ سُرْعَةَ وَقُوعِ الْكِفَايَةِ، وأفادتِ وَقُوعَ الشَّقَاقِ، وأَنَّهُ لَيْسَ

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 1/653.

(2) الألوَسي، روح اللعاني: 1/394.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 1/741.

بأمرٍ متوقعٍ، بل هو أمرٌ واقعٌ، ونستطيع حملَ الفاءِ على أن تكونَ فصيحةً، بمعنى: إن وقعَ منهم شقاقٌ فسيكفيكهم الله، وعلى الاحتمالين فإنَّ الكفايةَ متحقِّقةٌ، والطَّمَأْنينةُ ثابتةٌ، وفيها بيانُ حاجةِ قلبِ المؤمنِ إلى التَّسْلِيَةِ والتَّثْبِيتِ بالإعانةِ الإلهيَّةِ، وأنَّ ذلك لا يقدِّحُ في التَّوَكُّلِ على الله؛ لأنَّه إذا كان وحده تعالى هو الكافي والحافظُ، فيجِبُ أن يكونَ التَّوَكُّلُ والاعتمادُ عليه وحده⁽¹⁾.

إِثَارُ التَّعْبِيرِ بـ (السَّيْنِ) دُونَ (سُوفَ) فِي ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾:

وممَّا أكَّدَ معنى التَّسْلِيَةِ والتَّثْبِيتِ إِثَارُ التَّعْبِيرِ بـ (السَّيْنِ)، دُونَ (سُوفَ) بعدَ فاءِ التَّفْرِيعِ فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾، وهذا مُشْعِرٌ بتعقُّبِ الكفايةِ عقيبَ شقاقِهِمْ مباشرةً دُونَ مُهْلَةٍ، والمجيءُ بالسَّيْنِ يَدُلُّ على قُرْبِ وَقُوعِ الكفايةِ لَا مَحَالَةٍ؛ وتحقيقِ وعدِ الله تعالى، بأنَّه يَكْفِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ سُوءَ شِقَاقِهِمْ وَشَرَّهُ؛ لأنَّها أَقْرَبُ في التَّنْفِيسِ مِنْ (سُوفَ)⁽²⁾.

بِلَاغَةُ الْفَاصِلَةِ الْقِرْآنِيَّةِ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

جاءت الْفَاصِلَةُ الْقِرْآنِيَّةُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تَذْيِيلًا مُقَرَّرًا لِمَا سَبَقَ مِنَ الْوَعْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ وَمُؤَكِّدًا لَهُ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ نَبِيَّهَ بِالنُّصْرَةِ وَالْمُعُونَةِ، أَتْبَعَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَنُونَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽³⁾؛ فَالتَّذْيِيلُ يَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ وَعِيدٌ لِلْكَفَّارِ، بِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ سَمِيعٌ بِمَا يَنْطِقُونَ بِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْمَكَاثِدِ وَالْغِلِّ، عَلِيمٌ بِمَا يُضْمِرُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، مِمَّا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَهُوَ مُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ، فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ أَمْرٌ؛ إِلَّا وَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كِفَايَتِهِ.

اقتِراءُ الفاءِ
التَّعْقِيبِيَّةِ
بِالسَّيْنِ يَدُلُّ عَلَى
قُرْبِ الْكُفَايَةِ
وَسُرْعَتِهَا

الْجَمْعُ بَيْنَ
وَعِيدِ الْكَافِرِينَ،
وَوَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ
بِالنُّصْرَةِ

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 2/95.

(2) أبو حيان، البحر للحيط: 1/654.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/168، والآلوسي، روح المعاني: 1/395.

اشتمال
الاسمين جميع
الأقوال والأفعال
الظاهرة
والباطنة

بلاغة القصر
في بيان كمال
الوصفين لله
تعالى

والآخر: أنه وعدُ للنبي ﷺ، والمعنى: أنه تعالى السميع لما تدعو به، العليم بما في نيتك من إظهار الإسلام، فيستجيب لك، ويوصلك إلى مُرادك، وبهذا اشتملتِ الفاصلةُ على الوعدِ والوعيدِ⁽¹⁾.

لَمَّا كَانَ كَيْدُهُمْ وَغُلْهُمُ وَشَقَاقُهُمْ لَا يَخْلُو مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، نَاسَبَ أَنْ يَأْتِيَ فِي التَّذْيِيلِ بِاسْمَيْنِ كَرِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَهُمَا: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فَهُمَا يَقْتَضِيَانِ سَمْعَ الْأَقْوَالِ، وَعِلْمَ الْأَفْعَالِ.

مِنْ بِلَاغَةِ التَّرَاكِبِ فِي فَاصِلَةِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَسْلُوبُ الْقَصْرِ، الْمُسْتَفَادُ مِنْ ضَمِيرِ الْفَصْلِ: (هُوَ)، وَتَعْرِيفُ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي كَمَالِ الْوَصْفَيْنِ لَهُ تَعَالَى، بِتَنْزِيلِ سَمْعِ غَيْرِهِ وَعِلْمِهِ مِنْزَلَةَ الْعَدَمِ، فَهُوَ تَعَالَى الْمُخْتَصُّ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ، وَالسَّمْعِ الْكَامِلِ، فَجَاءَ بِالصِّفَتَيْنِ مُعَرَّفَتَيْنِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكَمَالِ فِي الْوَصْفِ، وَجَاءَ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَصْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَبَيَانَ أَنَّ مَا عَدَاهُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَسْمَعُ إِذَا مَا قِيسَ بِعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَوْ جَاءَ بِهِمَا نَكْرَتَيْنِ لَمْ يُفِيدَا هَذَا الْمَعْنَى؛ إِذْ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ سَمْعٌ وَعِلْمٌ يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ⁽²⁾.

وَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ، بِاعْتِبَارِ مُتَعَلِّقٍ خَاصٍّ، أَيْ: السَّمِيعُ لِأَذَاهُمْ بِالْقَوْلِ، الْعَلِيمُ بِضَمَائِرِهِمْ، فَاطْمَئِنَّ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافِيكَ مَا تَتَوَجَّسُّ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَذَاهُمْ، بِكَثْرَتِهِمْ وَمَكْرِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَبِهَذَا يَكُونُ الْقَصْرُ حَقِيقِيًّا مُقَيَّدًا مُغَايِرًا لِلْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ⁽³⁾.

وَقَدْ مَّ صِفَةٌ: ﴿السَّمِيعُ﴾ عَلَى صِفَةٍ: ﴿الْعَلِيمُ﴾، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وَجَاءَ هَذَا التَّقْدِيمُ مُنَاسِبًا لِمَضمونِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،

تقديم السميع
على العليم
باعتباره أوقع في
النفس المذنبة

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/196، والرازي، مفاتيح الغيب: 4/74.

(2) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 194.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/742.

وسياقها العام؛ فلما كانت الفاصلة وعيدًا يتضمَّن التَّخْوِيفَ والتَّهْدِيدَ، بدأ بالسَّمْعِ؛ لأنَّه أَوْقَعَ في بابِ التَّخْوِيفِ مَنْ ذَكَرَ الْعَلِيمَ؛ فهو أُولَى بالتَّقْدِيمِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: بِأَنَّهُ قَدَّمَ السَّمْعَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ وَسَائِلِ الْعِلْمِ فَهُوَ يَسْبِقُهُ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى سَمِيعًا لِأَقْوَالِهِمْ، عَلِيمًا بِأَخْبَارِهِمْ، فَسَيَكْفِي نَبِيَّهُ شَرَّهُمْ وَمَكَائِدَهُمْ⁽¹⁾، وهؤلاء لَمَّا كَانُوا مَذْنِبِينَ كَانَ إِخْبَارُهُمْ بِسَمْعِ اللَّهِ لِأَقْوَالِهِمْ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ مَجَرَّدِ إِخْبَارِهِمْ بِالْعِلْمِ.

عَلَّةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ: ﴿صِبْغَةً﴾ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ:

جاء قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ رَدًّا عَلَى دَعْوَةِ بَاطِلَةٍ لِأَهْلِ الْكِتَابِ؛ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ صِبْغَةٌ تُطَهِّرُهُمْ، وَهِيَ عِنْدَهُمُ الْإِغْتِسَالُ بِمَاءٍ خَاصٍّ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِالْمَعْمُودِيَّةِ، وَكَانُوا يَغْمِسُونَ فِيهِ أَطْفَالَهُمْ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ مِيلَادِهِمْ، وَيَقُولُونَ: هَذَا طَهُورٌ مَكَانَ الْخِتَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالُوا: الْآنَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا، وَيَغْتَسِلُ بِهِ الْكَبِيرُ عِنْدَهُمْ أَيْضًا إِذَا كَانَ عَاصِيًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَيْهِمْ، وَأَصْلُ الصَّبْغَةِ مَا يُلَوَّنُ بِهِ الثِّيَابُ وَمَا شَابَهُ، وَالصَّبْغَةُ فِي الْآيَةِ: دِينَ اللَّهِ وَفِطْرَتُهُ، وَالْمَعْنَى: صَبَغْنَا اللَّهُ بِفِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا⁽²⁾.

وُسَمِيَ دِينَ اللَّهِ وَفِطْرَتُهُ بِالصَّبْغَةِ: عَلَى طَرِيقَةِ الْمُشَاكَلَةِ التَّقْدِيرِيَّةِ، بِتَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ غَيْرِهِ؛ لَوُقُوعِ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ فِي الْآيَةِ رَدًّا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّ لَدَيْهِمْ فَقَطْ صِبْغَةٌ تُطَهِّرُهُمْ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْمُشَاكَلَةُ لِتَرَدِّ عَلَيْهِمْ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الصَّبْغَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ بِتَطْهِيرِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ الْحَقِّ، لَا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ الصُّورِيِّ⁽³⁾.

التَّعْرِيفُ
بِالنَّصَارَى فِيمَا
يَفْخَرُونَ بِهِ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ

(1) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/64.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/117-118، والواحدي، أسباب النزول، ص: 41.

(3) الرَّمْخَشَرِيُّ، الْكُشَافُ: 1/196.

الاستعارة التصريحية في قوله تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ):

بيان نزعة التَّمَيُّزِ
على الآخرين،
وأنَّه في التَّطَرُّفِ
الدِّينِيِّ

في التَّعبيرِ بالصَّبْغَةِ في الآيةِ الكريمة: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: استعارةٌ تصريحيةٌ، علاقتها المُشابهةُ، وهي مشابهةٌ خفيفةٌ حَسَنًا قصدُ المُشاكلةِ، بإطلاق الصَّبْغَةِ على ماءِ المعموديَّةِ، أو على الاغتسالِ به، وهي استعارةٌ مَبْنِيَّةٌ على تشبيهِ، وَجْهَهُ تَخْيِيلِيٍّ، إِذْ تَخَيَّلُوا أَنَّ التَّعْمِيدَ يُكْسِبُ المَعْمَدَ به صِفَةَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَيُلَوِّنُهُ بِلَوْنِهَا كَمَا يُلَوِّنُ الصَّبْغُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا، وقريبٌ منه إطلاقُ الصَّبْغِ على عادةِ القَوْمِ وَخُلُقِهِمْ⁽¹⁾، وهذه نزعةٌ عند النَّصارى تدلُّ على الغرورِ الدِّينِيِّ بطلبِ التَّمَيُّزِ على الآخرين، وهو ما يُؤدِّي إلى التَّطَرُّفِ في التَّعاملِ مع المخالفِ، ومعصيةِ الله في إرادته في جعلِ النَّاسِ جميعًا سواسيةً.

غرض الاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾:

بيان أفضليَّة
الإسلام والإنكار
على أهل الكتاب

جاء الاستفهامُ في الآيةِ الكريمة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ إنكارياً مُتَضَمِّناً معنى النَّفْيِ، فهو إنكارٌ على أهل الكتابِ الزَّاعمين بأنَّ صِبْغَتَهُمْ أَحْسَنُ صِبْغَةً، والنَّفْيُ بالنَّظَرِ إلى الواقعِ بأنَّه لا أحدٌ أحسنَ من الله تعالى صِبْغَةً، وهذا ما قرَّره حذفُ جوابِ الاستفهامِ: (لا أحدٌ)، أمَّا التَّوْبِيخُ فهو على ما ذهبوا إليه من اعتقادِهِم الباطلِ الزَّائِفِ، القائمِ على العبادةِ الصُّورِيَّةِ الشَّكْلِيَّةِ⁽²⁾.

وبهذا الاستفهامِ كان التَّعبيرُ أقوى دلالةً مِنَ النَّفْيِ المُجَرَّدِ: "لأنَّ النَّفْيَ بالاستفهامِ فيه معنى: أَنَّ المُخَاطَبَ سَبَقَ إِلَى النَّفْيِ، فكأنَّ النَّفْيَ من القائلِ، والإقرارَ به من جهةِ المُخَاطَبِ"⁽³⁾، وقد حَقَّقَتْ بلاغتهُ في هذه الآيةِ نَفْيَ أَنْ تَكُونَ ثَمَّةَ صِبْغَةٍ أَحْسَنَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّهِ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 1/743.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنْزِيلِ: 1/109، وأبو السَّعُود، إرشاد العقل السَّليم: 1/168.

(3) أبو زهرة، للعجزة الكبرى، ص: 212.

تعالى، وأنَّ يكونَ دينٌ أفضلَ من دينِ اللهِ تعالى، أو يَفْهَمَ منه بمَعونةِ مقامِ المَدْحِ نَفْيُ مُساواةِ دينِ لدينِ اللهِ تعالى في الحُسْنِ، وأفضليَّةُ دينِ اللهِ واضحةٌ في هذا المَقامِ، مِنْ إضافةِ اسمِ الصَّبْغَةِ إلى اللهِ، إضافةً تَشْرِيفٍ وتعظيمٍ، لإدخالِ الرُّوعةِ والمَهابةِ على مَنْ يَتَنَكَّرُ لأمرِ هذا الدينِ، أو يُعْرِضُ عَنْهُ⁽¹⁾.

بلاغة صيغة التَّفْضِيلِ «أَحْسَنُ»:

صيغةُ (أَفْعَل) الواردةُ في الاستفهام لا يُرادُ بها حقيقةُ التَّفْضِيلِ؛ إذ صِبْغَةُ غيرِ اللهِ تعالى مُنْتَفِ عنها الحُسْنُ، أو يُرادُ بها التَّفْضِيلُ، باعتبارِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ في صِبْغَةِ غيرِ اللهِ حُسْنًا، وأنَّ التَّفْضِيلَ إِنَّمَا يَجْري بين الصَّبْغَتَيْنِ، لا بين الصَّابِغَيْنِ⁽²⁾.

وصيغةُ (أَفْعَل) فيها فائدَتان: أولاهما: التَّفْتِيشُ النَّفْسِيُّ عن أَثَرِ الصَّبْغَةِ الحَقِيقِيَّةِ أو الصُّورِيَّةِ، وما تُخْفِيهِ صدورُهم، بحيث يكونُ الشَّخْصُ دائِمَ التَّفْتِيشِ عن أَثَرِ دِينِهِ فيه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُريدُ أَنْ يُقَرَّ الإنسانُ بهذا على نفسه، و(أَفْعَل) التَّفْضِيلِ في قوله تعالى: "أَحْسَنُ" على بابِهِ، فصِبْغَةُ اللهِ أَحْسَنُ مِنْ أيِّ صِبْغَةٍ، أو نقولُ: إِنَّهُ لِلْحُسْنِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لا يَقْتَرِبُ مِنْ مكانَتِهِ حُسْنٌ مَهما يكنَ، فَضلاً عن أَنْ يساويه؛ فيكونُ أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ على غيرِ بابِهِ، والفائدةُ الثَّانِيَّةُ: بيانُ خطأ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ في صِبْغَةِ غيرِ اللهِ حُسْنًا.

دلالة الفاصلة: «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» على القَصْرِ:

أفادتِ الفاصِلَةُ: «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» الرَّدَّ على أهلِ الكتابِ بالقَصْرِ، بطريقَيْنِ:

الأول: تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخِيرُ، فقد قَدَّمَ شِبْهَ الجُمْلَةِ مِنَ الجَارِّ والمَجْرورِ: «لَهُ»، على عامله: «عَابِدُونَ»، والأصلُ: (ونحن عابدون

دعوةً للمؤمن إلى
الامتثال للحسن
المطلوب في
صبغة الله

بيان أنَّ الصَّبْغَةَ
الحَقَّةَ لعبادِ
اللهِ المُوَحِّدينِ،
والتَّعْرِيفُ
بغيرهم

(1) أبو السُّعُود، إرشاد العقل السليم: 1/168.

(2) أبو حَيَّان، البحر للحيط: 1/656.

له)، فأفادَ تخصيصَ العبادةِ لله تعالى وحده، وقصرَها عليه دونَ غيره، وتحسينَ الفاصلةِ، والاهتمامَ بالمُقَدَّمِ⁽¹⁾.

الآخر: اسميَّةُ الجُمْلَةِ، فقد أفادتِ القصرَ أيضًا؛ لدلالةِ الجُمْلَةِ الاسميَّةِ على ثباتِ الوصفِ ودوامِهِ لهم، والمُتمَثِّلُ بالعبادةِ الخالصةِ لله تعالى، وفي هذا: تعريضُ بأهلِ الكتابِ الَّذِينَ اصْطَبَغُوا بِالْمَعْمُودِيَّةِ، وأشركوا بالله تعالى، وردُّ عليهم بأنَّهم بعيدونَ عن العبادةِ الصَّحيحةِ، الَّتِي تَتَطَلَّبُ مِنْهُمْ تَوْحِيدَ اللَّهِ تعالى وحده⁽²⁾.

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الدِّينُ وَالْمِلَّةُ:

الدِّينُ مَا يَذْهَبُ
إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ،
وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ
يُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى، وَهُوَ
أَعَمُّ، وَالْمِلَّةُ
خَاصَّةٌ، وَهِيَ
السُّنَّةُ وَالطَّرِيقَةُ

الْمِلَّةُ: السُّنَّةُ وَالطَّرِيقَةُ، وَأَصْبَحَتْ اسْمًا لِمَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَعْلَمُونَهَا وَيَسْلُكُونَهَا، وَيُوجِّهُونَ أَتْبَاعَهُمْ إِلَى سُلُوكِهَا⁽³⁾، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ لَا تُضَافُ إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ الَّذِي تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَا تَكَادُ تُوجَدُ مُضَافَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا إِلَى أَحَادِ أُمَّةِ النَّبِيِّ، وَلَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي جُمْلَةِ الشَّرَائِعِ دُونَ أَحَادِهَا، فَلَا يُقَالُ: مِلَّةُ اللَّهِ، وَلَا مِلَّتِي، وَلَا مِلَّةُ زَيْدٍ، كَمَا يُقَالُ: دِينُ اللَّهِ، وَدِينِي، وَدِينُ زَيْدٍ⁽⁴⁾؛ لِأَنَّهَا تُقَالُ عِتَابًا بِمَنْ يُؤَدِّي الشَّرْعَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، فِي حِينِ تَجَدُّ الدِّينِ يُقَالُ عِتَابًا بِمَنْ يُقِيمُهُ وَيَعْمَلُ بِهِ⁽⁵⁾؛ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْجَزَاءِ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ⁽⁶⁾.

أَمَّا الدِّينُ، بِالْكَسْرِ، فِي اللُّغَةِ: فَهُوَ الْعَادَةُ مُطْلَقًا، وَهُوَ أَوْسَعُ مَجَالًا، يُطْلَقُ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَيْضًا، وَالدِّينُ: مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/195.

(2) الألوسي، روح المعاني: 1/395.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).

(4) الكفوي، الكلبيات، ص: 524.

(5) الراغب، المفردات: (ملل).

(6) الرُّجَّاح، معاني القرآن وإعراجه: 1/47.

فِيهِ شَرَائِعٌ، مِثْلَ دِينِ أَهْلِ الشَّرْكِ، وَكُلِّ مِلَّةٍ دِينٌ، وَلَيْسَ كُلُّ دِينٍ مِلَّةً، وَالْيَهُودِيَّةُ مِلَّةٌ؛ لِأَنَّ فِيهَا شَرَائِعَ، وَلَيْسَ الشَّرْكَ مِلَّةً، وَإِذَا أُطْلِقَ الدِّينُ فَهُوَ الطَّاعَةُ الْعَامَّةُ الَّتِي يُجَازَى عَلَيْهَا بِالثَّوَابِ⁽¹⁾.

وَالْمِلَّةُ: اسْمٌ لِجُمْلَةِ الشَّرِيعَةِ، فَقَدْ تَطَلَّقَ عَلَى أَصُولِ الشَّرِيعَةِ، وَهُوَ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمَرْءُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ⁽²⁾، وَقَدْ تَسْرِي الْمِلَّةُ إِلَى الضَّدِّ، فَتُقَالُ فِي الْعَقِيدَةِ الْفَاسِدَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

وَالدِّينُ: اسْمٌ لِمَا عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ: فَلَانٌ حَسَنُ الدِّينِ، وَلَا يُقَالُ: حَسَنُ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هُوَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَيُقَالُ لِخِلَافِ الدِّمِيِّ: الْمِلِّيُّ؛ نُسَبُّ إِلَى جُمْلَةِ الشَّرِيعَةِ، فَلَا يُقَالُ لَهُ: دِينِي، وَالدِّينُ إِذَا أُطْلِقَ فَهُوَ الطَّاعَةُ الْعَامَّةُ الَّتِي يُجَازَى عَلَيْهَا بِالثَّوَابِ⁽³⁾.

أَمَّا إِذَا قِيدَ: فَتَخْتَلِفُ دَلَالَتُهُ، لَكِنَّهَا تَبْقَى تَمَّتْ إِلَى الْجَزَاءِ بِصِلَةٍ، قَالَ الشَّرِيفُ الْجُرْجَانِيُّ: "الدِّينُ وَالْمِلَّةُ: مُتَّحِدَاتٌ بِالذَّاتِ، وَمُخْتَلِفَانِ بِالِاعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَطَاعُ تُسَمَّى: دِينًا، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تُجْمَعُ تُسَمَّى: مِلَّةً، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا يُرْجَعُ إِلَيْهَا تُسَمَّى: مَذْهَبًا، وَقِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ وَالْمَذْهَبِ: أَنَّ الدِّينَ مَنْسُوبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمِلَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الرَّسُولِ، وَالْمَذْهَبُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمُجْتَهِدِ"⁽⁴⁾.

وَيَشْمَلُ الدِّينُ أَصُولَ الشَّرَائِعِ وَفُرُوعَهَا؛ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ وَضْعِ إِلَهِيٍّ سَائِقٍ لِدَوِيِّ الْعُقُولِ، بِاخْتِيَارِهِمُ الْمَحْمُودَ إِلَى الْخَيْرِ بِالذَّاتِ، قَلْبِيًّا كَانَ أَوْ قَالِبِيًّا، كَالِاعْتِقَادِ وَالْعِلْمِ وَالصَّلَاةِ، وَقَدْ يَتَجَوَّرُ فِيهِ، فَيُطْلَقُ عَلَى الْأَصُولِ خَاصَّةً، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْمِلَّةِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: 161]⁽⁵⁾.

وَمِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ: أَنَّ إِثَارَ لَفْظِ (مِلَّةٍ)؛ دَلَّ عَلَى الطَّرِيقَةِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا مَنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي ذَلِكَ: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّعَلُّمِ لِسِيرَتِهِ

(1) الْعَشْكِرِيُّ، الْفُرُوقُ لِلْعُغُوتِ: 177.

(2) الْقَنْوَجِيُّ، أَيْجَدُ الْعُلُومِ: 338 - 2/339.

(3) الْعَشْكِرِيُّ، الْفُرُوقُ لِلْعُغُوتِ، ص: 509.

(4) الشَّرِيفُ الْجُرْجَانِيُّ، التَّعْرِيفَاتُ، ص: 106-105.

(5) الْكَفَوِيُّ، الْكَلِمَاتُ ص: 524، وَبِتَصْرُفٍ.

وطريقته، وما كان عليه من شريعة الإسلام، ولفظ (المِلَّة) أقرب إلى هدف إيرادها، وهو: الدَّلالة على أصول الشرائع الصحيحة؛ حيث إنها تجمع أعمدة الرِّسائل السَّماويَّة، التي يُرجع إليها، ولا سيَّما عند الاختلاف والادِّعاء، كما زعم اليهود والنصارى.

أُنزِلَ وَنَزَّلَ:

الإنزال أعمُّ من التنزيل

ثمة فرق بين نَزَّلَ وأُنزِلَ مفاده أن نَزَّلَ يفيد التكثير⁽¹⁾، وخُصَّ لفظ ﴿أُنزِلَ﴾ بالاستعمال دون ﴿نَزَّلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ لِما رُوِيَ: أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ دَفْعَةً وَاحِدَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ نَجْمًا فَتَجَمَّأ، فَضَلًّا عَنْ أَنْ لَفْظَ الْإِنْزَالِ أَعْمُ مِنَ التَّنْزِيلِ⁽²⁾.

(الله) و(الإله):

الله: لا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَالْإِلَه: قد يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ ابْنُ مَالِكٍ بِقَوْلِهِ: "اللهُ خَاصٌّ لَهُ تَعَالَى، جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا، وَ(الإله) لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِكُلِّ مَعْبُودٍ"⁽³⁾.

و(إله): اسْمٌ جَنْسٍ، يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَلِذَا أَطْلَقَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ.

و(الله): لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَطُّ مُنْكَرًا، وَ(إله): يُسْتَعْمَلُ مُنْكَرًا مَقْطُوعًا عَنِ الْإِضَافَةِ حِينَئِذٍ، وَمُضَافًا حِينَ آخَرَ.

و(الله): يُطْلَقُ حَقِيقَةً عَلَيْهِ تَعَالَى، وَ(إله): يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، حِكَايَةً أَوْ مَجَازًا أَوْ حَقِيقَةً⁽⁴⁾.

النَّبِيُّ وَالرَّسُولُ:

الرَّسُولُ: أَصْلُهُ مِنَ الرِّسْلِ، وَهُوَ الْإِنْبِعَاثُ عَلَى التَّوَدِّعِ، وَإِبِلُ مَرَايِسِلٍ: مُنْبِعَثَةٌ أَنْبِعَاثًا سَهْلًا، وَمِنْهُ: الرَّسُولُ الْمُنْبِعَثُ، وَسُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا؛ لِأَنَّهُ ذُو رَسُولٍ، أَيْ: ذُو رِسَالَةٍ، وَالرَّسُولُ: اسْمٌ مِنْ

(1) الخليل، الغين، وابن ببيده، المُحكَم: (نزل).

(2) الراغب، المُفْرَدَات: (نزل).

(3) ابن مالك، شرح الكافية: 1/145.

(4) نصر سعيد، الدَّلالة في اسم الجلالة، من خلال سورة المجادلة: 13.

الرَّسُول مَنْ

أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى

بِرِسَالَةٍ وَشَرَعَ

جَدِيدًا، وَالنَّبِيُّ

الْمُنْبِيُّ عَنِ اللَّهِ

تَعَالَى بِوَحْيٍ،

لِيَدْعُوَ إِلَى عِبَادَةِ

اللَّهِ عَلَى أَحَدِ

شَرَائِعِ الرُّسُلِ

أَرْسَلْتُ، وَكَذَلِكَ الرَّسَالَةُ⁽¹⁾، وَالرَّسُولُ: الَّذِي يُتَابِعُ أَخْبَارَ الَّذِي بَعَثَهُ، أَخَذًا مِنْ قَوْلِهِمْ: جَاءَتِ الْإِبِلُ رَسَلًا، أَي: مُتَتَابِعَةً، وَالْإِرْسَالُ: التَّوَجُّيْهُ، يُسَلِّكُ فِيهِ التَّوَقُّرَ وَالتَّفَهُّمَ وَالتَّرَفُّقَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ شَدِيدًا⁽²⁾.

وَإِذَا أُطْلِقَ لَفْظُ الرَّسُولِ أُريدَ بِهِ: "إِنْسَانٌ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى الْخَلْقِ، لِتَبْلِيغِ الْأَحْكَامِ"⁽³⁾، فِي حِينَ أَنَّ النَّبِيَّ هُوَ: "مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِمَلَكٍ، أَوْ أَلْهِمَ فِي قَلْبِهِ، أَوْ نُبِّهَ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ، فَالرَّسُولُ أَفْضَلُ بِالْوَحْيِ الْخَاصِّ، الَّذِي فَوْقَ وَحْيِ النُّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ جِبْرَائِيلُ خَاصَّةً، بِتَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ"⁽⁴⁾، وَالرَّسَالَةُ: تُضَافُ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ الْمُرْسَلُ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: 144]، وَلَمْ يَقُلْ: بِنُبُوتِي.

الرَّسُولُ أَعْمُ
مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ
رَسُولٍ نَبِيٍّ،
وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ
رَسُولًا

أَمَّا النَّبِيُّ: فَهُوَ الْمُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ ﷻ، فَتَرَكَ هَمَزَهُ، وَقِيلَ: النَّبِيُّ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبَاوَةِ، وَهِيَ الشَّيْءُ الْمُرْتَفِعُ، أَي: إِنَّهُ أَشْرَفُ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ، فَأَصْلُهُ غَيْرُ الْهَمَزِ⁽⁵⁾.
وَالْإِنْبَاءُ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ تَحْمِيلِ النَّبَأِ، وَالْإِرْسَالُ لَا يَكُونُ بِتَحْمِيلٍ، وَالنُّبُوَّةُ: يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْإِضَافَةُ إِلَى النَّبِيِّ، فَيُقَالُ: نُبُوَّةُ النَّبِيِّ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ مِنْهَا الصِّفَةَ الَّتِي هِيَ عَلَى طَرِيقَةِ الْفَاعِلِ⁽⁶⁾، وَالنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ ذَوِي الْعُقُولِ مِنْ عِبَادِهِ، لِإِزَاحَةِ عِلَلِهِمْ فِي أَمْرِ مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَالنَّبِيُّ: لِكَوْنِهِ مُنْبِئًا بِمَا تَسْكُنُ إِلَيْهِ الْعُقُولُ الذَّكِيَّةُ، وَهُوَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فَعِيلًا، بِمَعْنَى فَاعِلٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي﴾ [الحجر: 49]⁽⁷⁾.

(1) الراغب، للفردات: (رسل).

(2) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (رسل).

(3) الْجُزْجَانِيُّ، التَّعْرِيفَات، ص: 110.

(4) الْجُزْجَانِيُّ، التَّعْرِيفَات، ص: 239.

(5) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (نبا).

(6) الْعَشْكُرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ: 1/162.

(7) الراغب، للفردات: (نبا).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 2، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-53-798-9948-978

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 2: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

التقييم الدولي: 8-53-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»